في الأدب الانجليزي

٦ ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

تتمة البحث

فلسفة الرينيز :

إن من الصعب علينا أن نرجع إحدى رواياته العديدة إلى أصل ديني صريح ، ولكن هناك عدداً غير قليل من العقائد الدينية أودعها شكسبير ثنايا شعره ومؤلفاته ، وتختلف هذه العقائد باختلاف الروايات التي ورد ذكرها فيها

ففي رواية الملك هنري الخامس نرى فكرتين دينيتين أودعهما الشاعر في روايته . وأولى هذه العقائد هي عقيدته في أصل خطأ

ساءهم مقتل عثمان ، ولا بد أن يكونوا ساخطين على قتلته راغبين في الثأر والاقتصاص منهم ؟ وقد ترامى الى سمع ابن العاص أن عليا يأوي هؤلاء المجرمين ويعد لهم في نعمته ويضمهم من حزبه موضع القادة والرؤساء .. فلم لا يقال للشاميين إن معاوية يقبض يده عن علي لأن عليا يمين قتلة عثمان ويدعهم أحرارا طلقاء ، بل لم لا يقال لهم إن مقتل عثمان قد صادف من نفس علي موقعا طيبا ؟ . . بل لم لا يقال لهم إن عليا نفسه عمل على هذا القتل وعاون عليه لكي يصير الأمر اليه أخيرا ؟ .. ولم لا تلتمس البراهين على ذلك ، وقد كان علي في المدينة ساعة قتل عثمان ، وكان في ميسوره أن يمضي لنجدته فلم يمض ... وكان الأمر لا يكلفه إلا مشية من داره الى دار عثمان فتتفرق الجموع ويرتد الناس ... بلى ... ولم لا يؤثر على عواطفهم بتصوير عثمان عطشان يجهده العطش ... وعلي في داره روي مسرور ... بلى ... وهذا ابن أبي بكر قاتل عثمان بيده مكرم من علي ، أثير عنده ، مقام على مصر واليا ... بلى ، والحق أبلج لا تنقصه البينة ولا يعوزه البرهان !

للبحث بقية

حسين مؤنس

الانسان ، وثانيتهما هي عقيدته في المعمودية . أما خطأ الانسان فكان منشؤه تلك الخطيئة العظيمة التي اقترفها آدم أبو البشر . اجترم ذلك الجرم فتلوثت نفسه بتلك الخطيئة وكان جديراً بعد ذلك أن تتطهر نفسه مما لحق بها من الأدران ، فأرسل الله اليه أحد الملائكة وأخرج منه تلك الروح الطائشة ووضع بدلاً منها روحاً طاهرة نقية ، وما اقتراف الناس للآثام إلا سير على السنن الذي اختطه والدهم من قبل واحتذاء لحذوه

وهناك عقيدة ثالثة أدرجها شكسبير في رواية هملت ، فهو يعتقد أن الدعاء والابتهال إلى الله لا يصل إلى السماء إلا إذا كان صادراً عن نفس طاهرة وقلب صادق الاخلاص ، وهذه حقيقة دينية تثبت أن شكسبير كان رجلاً ورعاً تقياً يؤمن بصدق النية وخلوصها من الرياء والنفاق

نظر شكسبير إلى هذا العالم الملىء بالشرور والموبقات نظرة احتقار وازدراء فكان دائم التوق إلى الخلاص منها والانتقال إلى حياة أروع منها وأطهر ، وقد ذكر عقيدته هذه على لسان بطله هملت الذي كان يقصد الترفع عن الأمور التافهة الشريرة والسمو بنفسه في عالم أرق ، عالم ملؤه التقى والصلاح والسعي إلى ما فيه خير الناس

وفي رواية الملك يوحنا نرى شكا في عالم آخر يلقى الناس فيه أبناءهم وأصدقاءهم ، ذلكم هو يوم البعث والحساب ، وشكه هذا يظهر على لسان الأميرة كنستانس عندما تخاطب الكردينال قائلة : « إن كان حقاً ما تقول عن وجود حياة أخرى نجتمع فيها بأصدقائنا فاني لا شك واجدة ولدي الذي فقدته في المهد صبياً »

أما اعتقاد شكسبير في وجود الآلهة فكان عقيدة ثابتة لاشك فيها ولا مراء . فهو دائماً يذكر الآلهة في عدد من رواياته وعند مايقصد إظهار أمر عظيم يقسم بالآلهة الأعظم الذي تطأطىء له جباه البشر ؛ فهو يقول على لسان بانكو : « إني لأقسم أمام الآلهة القدير أن أحارب جميع المكائد التي يقصد منها خراب الأمة والبلاد »

وفي رواية روميو وجولييت تظهر لنا عقيدته في المعمودية ، فالانسان إذا اقترف أمراً منكراً وجب عليه أن يتعمد مرة أخرى فيصبح كأنه حديث النشأة والولادة ويتخلص بواسطة ذلك مما لحقه من ذنوب ومعاص

وأهم هذه العقائد الدينية الكثيرة التي ضمّنها شكسبير رواياته عقيدتان : أولاهما حق الملوك الالهي ، وثانيتهما عقيدة تناسخ الأرواح ؛ وقد ذكرت العقيدة الأولى في موضعين من روايات شكسبير : أحدهما في رواية الملك ريشارد الثاني عندما يهتف الملك قائلاً : « إن جميع مياه المحيطات لعاجزة عن أن تمحو الزيت القدس عن الملك المنصب من قبل الآلهة » (١) . والآخر في رواية مكبث عند ما يتقدم الطبيب إلى مالكولم Malcolm بقوله واصفاً الملك القديس : « ولمسة من يده التي وضع فيها الآلهة قدسية وطهارة لم يضعهما في غيره كانت كافية لأن تشفي المرضى والمصابين » (٢)

من هاتين الفقرتين يتبين أن شكسبير كان يؤمن بحق الملوك الالهي ، وأنهم نفر من الناس اختارهم الله لإدارة شعوبه ، فعليهم طاعتهم وتنفيذ أوامرهم . وليس من العجيب أن يعتقد هذا الاعتقاد وقد وجد في عصر سادت فيه هذه العقيدة وآمن بها الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ، ولم تكن لأفكار الحرّة قد انتشرت بعد ، بل كان الناس يفضلون كل ما هو قديم موجود

وأما العقيدة الثانية كما ذكرنا فهي عقيدة تناسخ الأرواح ، وهذه تؤلف قسما من النظرية المروقة لدينا بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال بعض الأرواح من أجسادها إلى أجساد أخرى ، فروح الرجل التقي الورع تنتقل إلى جسد كريم تحل فيه وتتخذ منه مكاناً لاقامتها ، وأما روح الرجل الشرير فتحل في جسد أحد الحيوانات الشريرة ؛ وقد ذكر شكسبير هذه العقيدة في (الليلة الثانية عشرة Twelfth Night) وفي تاجر البندقية ، وفي كل من هذين الموضعين ينظر شكسبير الى هذه العقيدة نظرة استخفاف وازدراء ؛ فهو يقول على لسان كراشيانو في الرواية الثانية : « إنك لتجعل من عقيدتي موضعاً دائماً للشك فيسهل على حينئذ الاعتقاد بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال أرواح الحيوانات إلى أجساد البشر » (٣)

وفي رواية « الليلة الثانية عشرة » نرى حواراً بين المهرج ومالفوليو . واليك نصه :

المهرج : « ما هي نظرية فيثاغورس ؟ »

مالفوليو : « إنها تعني انتقال روح جدتي الى جسد أحد الطيور »

المهرج : « ماذا تعتقد في هذه الفكرة ؟ »

مالفوليو : « إني لأنزّه الروح أن تنزل إلى هذا المستوى ، ولذلك فاني أعتقد بأنها نظرية خاطئة »

المهرج : « وداعاً ياصاح ! لتبق على جهلك ، وستعتقد بهذه النظرية قبل أن أعيد اليك عقلك ، وعندئذ ستتردد في ذبح أحد الطيور مخافة أن تحل روحه محل روح جدتك » (١)

من هذا الحوار يتبين أن شكسبير كان يستهزىء بهذه العقيدة وينظر اليها نظرة احتقار وازدراء ؛ فعقائده الدينية لا تسمح له بهذا التفكير ، ولذلك كان جديراً به أن يوليها ظهره وألا يهتم بها اهتماماً جدياً

وقبل أن أختم هذا البحث في فلسفة شكسبير الدينية أورد ما قاله جيبسن عنه : « إن الاحترام الزائد الذي أبداه شكسبير في رواياته نحو الديانة المسيحية الأساسية لتجعلنا أميل الى الاعتقاد في نصرانيته لولا عدم وجود أحد الأدلة لتثبت لنا أنه كان مسيحياً صادقاً » (٢) ولكنه لم يكن يوماً ما معتقداً بجميع الاعتقادات التي آمن بها أهل عصره . نعم لقد عاش مسيحياً ومات مسيحياً ، ولكنه أظهر في بعض الأمور شكا وتساؤلاً عن صحتها وصدقها . نعم كان شديد الاحترام للكنيسة وعقائدها ولكنه خالفها في كثير من المواضع

خاتمة :

لو تتبعنا نظريات شكسبير في الأمور الغيبية التي ذكرناها سابقاً لرأينا الاهتمام الزائد الذي أبداه نحوها ، نعم عاش في عصر سادت فيه الخرافات والأوهام ، ولكنه تطلع بعين ثاقبة فرأى أشياء كثيرة يعجز الرجل العادي عن رؤيتها . كانت له القدرة الكافية على تفهم الأشياء الغيبية ففهمها بطريقة تخالف الطريقة التي فهمها الغير

(1) Richard II . Act III . 2 . 54
(2) Macbeth ; IV . 3 . 141
(3) Merchant of Venice IV 1 .30

(1) Tweifth Night IV . 2 . 54
(2) Gibson . Sh's Use of The Subernatural P .47

ولم تكن العقائد الشائعة المصدر الوحيد الذي اعتمده شاعرنا في أبحاثه عن المغيبات ، بل كانت هناك مصادر أخرى من الفلسفة الرومانية والأغريقية القديمة مضافاً اليها الابتكار الذي أوجده شكسبير دون أن ينقل عن غيره . سمع بأذنه ما يدور بين الناس من هواجس وأوهام فجمعها في شعره إلى ما نقله عن مخلفات السلف وأخرج منها روائع تعد من أعظم مبتكرات الأدب ، وأخص بالذكر منها رواية (حلم منتصف ليلة من ليالي الصيف)

وأما الشبح في رواية هملت فيحوي نوعين من الأشباح أحدهما كان من ابتكار الشاعر العبقري والآخر مما نقله من سابقيه من الكتاب الذين رووا حادثة الأمير هملت بشكل قصصي

وأما ساحرات مكبث فقد اقتبسها شكسبير عن هولنشد Holinshed ويتبين لنا هذا مما قال في هو لنشد : « بينما كان مكبث راجعاً إلى العاصمة إذا به يصادف ثلاثاً من النسوة وقد ارتدين ألبسة تشبه ما كان يرتديه النساء في ذلك العصر » ؛ وأما شبح بانكو فهو ابتكار ابتدعه الشاعر العظيم ؛ وأما رواية العاصفة فيغلب على الظن أنها الأولى من نوعها ، وذلك لعدم وجود من كتب في موضوعها من الشعراء والكتاب الذين دونت كتبهم في السجلات وكتب القصص والتاريخ

تقع حياة شكسبير بالنسبة إلى بحثه في المغيبات في أربعة أطوار : الطور الأول منها هو طور ظهور روايته (حلم في منتصف ليلة من ليالي الصيف) فاستعماله للجنيات مبتكر ومحدث . . وهو سلس في كتابته بعيد كل البعد عما يرهق الذاكرة ويمل القارىء . وقد وصف كلارك كتابه هذا بقوله : « إن استعمال شكسبير المغيبات لأول مرة لما يدل على سروره ومرحه : فكل روايته هذه ملأى بالبهجة والحبور ، ويندر أن تجد هناك ما يكدرك إلا ما يقع في الأسطر القليلة التي بحثت في الأشباح »

وأما الطور الثاني من أطوار تأليفه فهو الدور الذي ظهرت فيه روايته الثانية هملت ؛ وفي هذه الرواية التمثيلية تشعر بالأرواح والأشباح تتصل ببني البشر اتصالاً لا يكاد يكون تاماً ، فان هذه القوى الخفية لا تستطيع أن تؤثر في مجرى حياة الانسان وتحوله في الجهة التي تريدها ، ولا يقوم الشبح في هذه الرواية بأي عمل من الأعمال إلا إذا كان بطريق وسيطه ؛ وكان شكسبير في هذا الطور قد بلغ الثلاثين من سنه وبدأت نظرته في الحياة تتحول من تفاؤل إلى تشاؤم ، وأخذت الأفكار والظنون تتنابه فتجعل منه عرضة دائمة للتفكير والتخيل ، فاعتقد أن وراء الانسان قدراً يسيره حسبما يريد ، وما الانسان إلا فريسة لهذا القدر الغاشم

والطور الثالث ينتهي باخراج رواية مكبث . ازدادت قوة هذه المخلوقات المغيبة ولكنها عاجزة عن إيقاع الضرر بالناس مباشرة ودون أية واسطة ، ولم تكن كلمات الساحرات في الحقيقة إلا صدى يردد ما كان يدور في خلد بطل الرواية ، وكان شكسبير يشعر بالشرور والموبقات تحيط به من كل جانب فأظلمت أفكاره وتناوبته الهواجس المختلفة ، وأصبح في خوف مستمر من هذه القوى الخفية التي تقوم بأعمالها تحت ستار من الظلام والخفاء . وهنا يصل إيمانه بالخرافات إلى القمة ويصبح شكسبير مؤمناً مصدقاً لكل ما يقال له عن هذه الأمور المخيفة المرعبة

وفي الطور الرابع أو الأخير نراه يخرج للناس رواية العاصفة وفيها يسترد رباطة جأشه وقوة عقيدته فيرجع إلى أفكاره المرحة الطلقة مرة ثانية . فما الأرواح والقوى الخفية إلا عبيد يستخدمها الانسان في مهامه وأغراضه ، وليس لها من القوة والسلطة عليه شيء ؛ وفي هذه السنوات الأخيرة يصل خياله الابتداعي إلى أقصى غايته . فيشعر بحقيقة الوجود وطبيعة الأمور دون أي ستار أو غطاء

وقد تخلص شكسبير من هواجسه ومخاوفه وعاد مرة ثانية إلى مرحه وسروره الذي أظهره في صورته التي صورها للجنيات فانطلقت مخيلته في الفضاء مجتازة جميع العوائق من عقائد وأفكار رجعية . وسجلت في روايته الأخيرة نتيجة عبقريته ونبوغه

وفي كل من هذه الأطوار الأربعة رأينا شكسبير يتخذ مواضيعه مما كان يدور في خلده من المسائل والمشاغل العقلية ، فهو مفكر واسع التفكير ، مصور حسن التصوير ، وشاعر خصب الخيال ؛ تجلى تفكيره في كل هذه الأمور العقلية التي بحثها ، وظهر تصويره في هذه الرسوم الرائعة التي رسمها لمخلوقات خيالية بأبدع تكوين وأحسن تصوير

نابلس — فلسطين

فيزي عمار